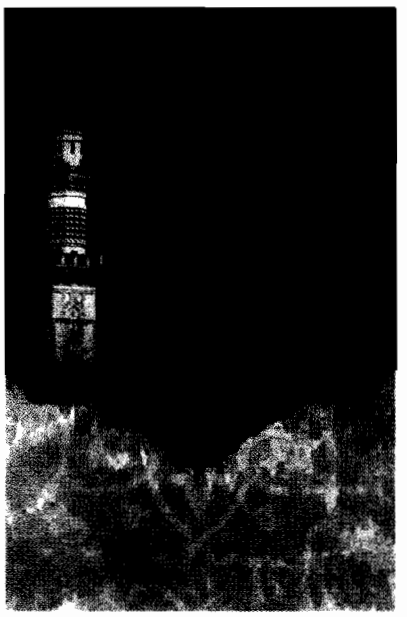

المدخل إلى علم تاريخ السنّة

الحمد لله كما يحب ويرضى، منّ علينا فهدانا، وأطعمنا وسقانا، ومن كل بلاء حسن أبلانا، أحمده على نعمه الكبرى التي لا تُعد ولا تُحصى، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم أجمعين.

أما بعد:

فمن نعم الله جلَّ وعلا علينا أن أكرمنا بهذا الدين، فجعلنا من خير أمّة أُخرجت للناس، وامتنَّ علينا بنبيه الكريم صلوات الله وسلامه عليه، ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ومن أعظم مهمات هذا النبي الكريم تبليغ آياته وتعليم الناس، والتعليم يقتضي البيان فبلغ القرآن وبيّن بالسنّة، فلم يمت عليه الصلاة والسلام إلا وقد أتم الله به النعمة وأكمل به الدين، وتعهد الله جلَّ وعلا وهو أصدق القائلين بحفظ دينه إلى يوم القيامة، فمهما أراد أحد أن يطعن في الدين أو يسيئ إليه إلا هيأ الله من الوسائل والسبل ما يكون فيها الحجة عليه والرد البليغ الذي ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨]، ومن العجيب أن تأتي هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٩].

والسنّة المطهرة هي البيان للقرآن، أصل مكين من أصول الدين الإيمان بها والعمل بمقتضاها تحقيق لركن الشهادة الثاني الذي يكون به المرء مسلماً، وهو أشهد أن محمداً رسول الله، وحقيقتها تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، لذا توالت الآيات في القرآن الكريم في تأكيد هذا المعنى فمن أراد محبة الله فليتبع رسول الله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

ولن يصيب المرء حقيقة الإيمان إلا بطاعة الرسول ونفي أي حرج في النفس عن هذه الطاعة، بل والتسليم المطلق لحكمه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

والآيات في هذا كثيرة، ولئن كان الأمر في هذا واضحاً حال حياة النبي ﷺ، فإن هذه الآيات لا ينتهي حكمها بوفاته عليه الصلاة والسلام، بل يستمر هذا الأمر بعد وفاته، وإلا كان هذا الركن الأساس وهو شهادة أن محمداً رسول الله دعوى لا يصدقها عمل، وحاشا لله أن يفرض حكماً لا واقع له، لأن السنّة ضرورة دينية لا يمكن قيام الدين إلا بها، ولما

تكفل الله بحفظ القرآن وإتمام نور الدين، فكان مقتضى ذلك حفظ السنّة حتى يتحقق معنى الدين الذي مفتاح الدخول إليه الشهادتان، فقيض الله للسنّة أجيالاً نقيّة تقيّة بدءاً من الرعيل الأول جيل الصحابة الكرام، فمن بعدهم حفظوها، وتدارسوها، ورعوها حق رعايتها، وبلغوها لمن خلفهم حتى وصلت إلينا نقيّة صافية بمنهج علمي دقيق بزّت فيه أمّة الإسلام سائر الأمم، حتى ليشعر المرء بهذا أن السنّة التي بين أيدينا أخذها من في رسول الله ﷺ، وكأنما شهد هديه وفعله ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨].

إلا أن قوماً عميت قلوبهم وطمست أبصارهم أرادوا النيل من السنّة المطهرة وحملتها ومن مناهجهم التي اختطوها، مرددين أقوالاً مرذولة قذفها شياطين الإنس من الكفار بزعم الموضوعية والبحث العلمي، فأثاروا الشبهة تلو الشبهة، فمنهم من اكتفى بإثارتها، ومنهم من توصل إلى التشكيك في السنّة، ومنهم من رد السنّة بالكلية وأنكرها آخذين من مواقف حصلت في العمر الطويل للسنّة ما حسبوه مطعناً، وظنوه مأخذاً، وما أتوا إلاّ من فهم سقيم، أو هوى متبع، أو جهل بطرق المحدثين ومناهجهم، وحينها تصدى لهم علماء كرام، فجابهوهم بالرد اعتماداً على الحجة والبرهان، والشواهد الماثلة للعيان وعرض تاريخي يجلّي ما علق في أذهان ذوي الأبصار من شوائب وأكدار، مبينين المراحل التي مرت بها السنّة وعلومها، وما ترتب على كل مرحلة، وما الأمور التي فرضتها تلك المرحلة، تبصرة للجاهلين، ورداً على المكابرين، وحجة على المخالفين.

وصنف من عامة الناس جهلوا مكانة السنّة ومنزلتها في الدين، والجهود التي بذلها العلماء لحفظها وأنواع علومها، وهم قد أخذوا من العلم بطرف وقد يقرأون ما يردده أولئك فيتأثرون بكلامهم، فاحتيج إلى بيان هذه الأمور في عرض تاريخي يفهمه الخاص والعام والصغير والكبير.

كل هذا دعت إليه الضرورة في هذا العصر، فظهر علم جديد في

اسمه ورسمه، قديم في متعلقاته وغرضه، ألا وهو تاريخ السنّة المشرفة، وقد كثرت فيه التآليف والمقالات، وتعددت أنواعها، وتمايزت في مضمونها، وتفاوتت في غرضها.

وعمدت كثير من الكليات الشرعية المختصة بوضع مادة تدرس موضوعات هذا العلم، وقد وفقني الله تعالى بتدريس هذه المادة سنوات، فرأيت أنها بحاجة إلى مدخل يعرف بتاريخ السنّة كعلم، وثمرة دراسته وتطوره وأسباب ظهوره، ومناهج العلماء فيه، وأشهر المؤلفات التي كتبت فيه، وهو بحث أردت أن أضع فيه لبنة تعين على فهم هذا العلم وتؤصل قواعده، وقد كانت خطتي فيه على النحو التالي:

ـ **المقدمة**: وهي ما بين يديك.

ـ **الباب الأول**: في أصول علم تاريخ السنّة، وفيه فصلان:

ـ **الفصل الأول**: التعريف بتاريخ السنّة، وفيه مباحث:

المبحث الأول: في تعريف التاريخ، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التاريخ في اللغة.

المطلب الثاني: التاريخ في الاصطلاح.

المبحث الثاني: التعريف بالسنّة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: السنّة في اللغة.

المطلب الثاني: السنة في الاصطلاح والفرق بينها وبين الحديث.

المبحث الثالث: التعريف بتاريخ السنة تركيباً.

ـ **الفصل الثاني**: أهمية تاريخ السنّة وموضوعاته، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: أهمية علم تاريخ السنّة وفوائده.

المبحث الثاني: الموضوعات التي يتناولها علم تاريخ السنّة.

ـ **الباب الثاني**: تاريخ هذا العلم والمؤلفات فيه، وفيه فصلان:

ـ **الفصل الأول**: ظهور علم تاريخ السنّة، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: علم تاريخ السنّة عند المحدثين الأولين.

المبحث الثاني: ظهور علم تاريخ السنة مستقلاً بذاته.

ـ **الفصل الثاني**: منهج كتابة هذا العلم والتعريف ببعض ما كتب فيه، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: منهج الكتابة عند من كتب في تاريخ السنة.

المبحث الثاني: التعريف ببعض من كتب في هذا الفن، وفيه مطالب:

المطلب الأول: كتاب تاريخ فنون الحديث للخولي.

المطلب الثاني: مباحث تاريخ السنة في كتب أحمد أمين: فجر الإسلام، وضحى الإسلام، وظهر الإسلام.

المطلب الثالث: كتب متفرقة في علم تاريخ السنّة.

ـ **الخاتمة**.

وقد سرت في بحثي على المنهج التالي:

١ ـ عزوت الآية بذكر رقمها من السورة عقب الاستشهاد بالآية.

٢ ـ خرّجت الأحاديث في الحاشية، فإن كانت في الصحيحين أو أحدهما اقتصرت في التخريج عليهما عن غيرهما، ووجود الحديث فيهما كاف عن الحكم بصحته.

وإن كانت في غيرهما اقتصرت على باقي الكتب الستة، ودرست إسنادهما فإن وافق حكمي حكم أحد الأئمة اقتصرت على قوله في الحكم.

٣ ـ عرّفت بالأعلام الذين يحتاجون إلى تعريف، ومن لا يحتاج

لشهرته أعقبت اسمه بذكر تاريخ وفاته، على أن الشهرة وعدمها نسبية باختلاف القراء.

٤ ـ عند التعريف ببعض ما كتب في تاريخ السنّة فقد سرت وفق منهجين، المنهج الأول في كتاب تاريخ فنون الحديث، ومباحث السنّة عند أحمد أمين فقد عرّفت المؤلف وموضوعاته مبيناً مزاياه وعيوبه، لأنهما يمثلان صورة لمنهجي كتابة تاريخ السنّة كما سيأتي، وأما عند التعريف بالكتب الأخرى فقد أوجزت ببيان موضوعاتها ومكانتها، نظراً لكثرتها، ومن ناحية أخرى موافقة لطبيعة النشر في المجلات وهو الإيجاز قدر الإمكان.

٥ ـ وضعت البحث في مجمله من قراءة المراجع في الموضوع المراد بحثه بطريقة متسلسلة، متجنباً كثرة النقول مع الإشارة إلى موضع الكلام إن كان مستفاداً من كتاب آخر.

هذا؛ وأسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتب

د.أحمد بن محمد بن حميّد

الباب الأول
أصول علم تاريخ السنّة

الفصل الأول
تعريف تاريخ السنّة

المبحث الأول:
التاريخ لغة واصطلاحاً

المطلب الأول: التاريخ في اللغة

التاريخ لغة مشتق من أرّخت ـ بتشديد الراء المفتوحة على الأشهر ـ وحُكِيَ تخفيفها[1] ـ ويُقال: من ورّخ توريخاً، والواو لغة بني تميم من باب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾[2] [النحل: ٩١].

واختلف في أصل الكلمة على قولين:

الأول: أن أصلها أعجمي من الجملة الفارسية «ماه روز» فماه بمعنى القمر، وروز بمعنى النهار، وكأنّ الليل والنهار طرفاه[3].

الثاني: أن الكلمة عربية واختلف في معناها على أقوال:

---

(١) المصباح المنير ص٤.

(٢) أدب الكتاب ص٢٤٦.

(٣) الإعلان بالتوبيخ ص١٥، توجيه النظر ص٢٨٨.

أ ـ التعريف بالوقت[1]، فتاريخ كل شيء غايته ووقته الذي ينتهي إليه، ومنه: «فلان تاريخ قومه»، أي الذي: انتهى إليه شرفهم[2].

ب ـ إثبات الشيء[3].

ج ـ أنه مقلوب من التأخير[4].

د ـ أنه مأخوذ من الأَرْخ ـ بفتح الهمز وكسرها وإسكان الراء ـ وهو بقر الوحش، وخصّه البعض بالفتيّ منها، فالتاريخ على هذا القول مأخوذ منه لأن الفتيّ من بقر الوحش حديث كأنه شيء حدث كما يحدث الولد[5].

قال أبو علي الأصفهاني[6]: «جميع ما ذكرنا فيه من اختلاف اللغات، وما دارت عليه الكلمة من التصاريف يدل على أنها جارية مجرى ما أصله العربية دون ما نقل إليه من العجمية»[7].

وعليه؛ فإن القول الأول الذي يجعل الكلمة أعجمية الأصل فيه نظر، وقد أشار الشيخ طاهر الجزائري[8] رَحِمَهُ اللَّهُ أن التعريب من قولهم: ماه روز

---

(١) الصحاح ص٣٦٦.
(٢) المغرب (٣٤/١).
(٣) لسان العرب (١٤٤/١).
(٤) المغرب (٣٤/١).
(٥) لسان العرب (١٤٤/١)، وفيه من التكلف ما لا يخفى.
(٦) أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصبهاني من أئمة النحو، تخرج به أئمة، وصنف تصانيف حسنة، توفي سنة أربعمائة وإحدى وعشرين وله تسعون سنة. انظر: سير أعلام النبلاء (٤٨٥/١٧).
(٧) الأزمنة والأمكنة ص٤٤٦.
(٨) طاهر بن محمد بن صالح بن أحمد بن موهوب الجزائري الأصل، الحسني النسب، الدمشقي المولد والوفاة، من أكابر علماء العصر علماً وفضلاً وتحقيقاً، تنقل بين دمشق والقاهرة عضواً في المجمع العلمي العربي، ومديراً لدار الكتب الظاهرية، مات سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وألف وله سبعون سنة. الأعلام (٢٢١/٣)، الأعلام الشرقية (٣١٦/١)، مقدمة تحقيق توجيه النظر للشيخ أبي غدة (١٥/١).

غير ظاهر[1].

وهذا صحيح، لكن لعل العجمة فيه من جهة وصفه كعلم حادث بوصفه المعروف إنما أخذ من العجم، وليس المراد أصل اللفظة إذ أن ما نقل من كلام العرب ينفي هذا.

قال د. جواد علي[2] في تعليقه على قول من قال: إن التاريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربي محض، وإن المسلمين أخذوه من أهل الكتاب: «وفي كلامهم صحة إذا كان قصدهم التاريخ العام للعالم الذي يبدأ وفقاً لما جاء عند أهل الكتاب من الخلق وظهور آدم فالأنبياء والرسل والملوك إلى أيامهم، وفيه خطأ ـ إذ قصدوا به التاريخ مطلقاً ـ أي: تثبيت الوقت على نحو ما يفهم من قولنا: أرخت الحادث، وأرخت الكتاب، فقد عرف التاريخ عند الجاهليين بدليل وروده في نصوصهم، واستعمالهم كلمة يورخ، وكلمة ورخ من الكلمات الواردة بكثرة في النصوص، ومنها: لفظ (توريخ) و (ورخ) بمعنى أرخ في عربيتنا، ولفظة (أرخ) نفسها هي من هذا الأصل»[3].

❋ ❋ ❋

(١) توجيه النظر ص٢٨٨.

(٢) جواد بن محمد علي من كبار المؤرخين المعاصرين وعضو في المجامع العلمية بالقاهرة وعمان والعراق ودمشق، وأستاذ بجامعة بغداد، قال صاحب ذيل الأعلام: «كان صاحب جد واجتهاد واستقامة وترفع وإباء وصدق ووفاء»، توفي سنة ثمان وأربعمائة وألف ببغداد وله أربع وثمانون سنة.
إتمام الأعلام ص١٠٢، ذيل الأعلام ص٥٩، تتمة الأعلام (١/١١٧).

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٨/٥١١)، وما نقله من ألفاظ مأخوذ من النقوش العربية القديمة التي وقف عليها المؤلف.

المطلب الثاني: التاريخ في الاصطلاح

لا بد من الإشارة قبل التعرض للتعريف الاصطلاحي للتاريخ أن العرب عند استعمالهم للتاريخ كان المراد به تحديد الوقت الذي يرتبط دائماً عندهم بأمر مشهود يحدث لديهم من ظهور نجم أو بداية حكم ملك أو واقعة مشهورة من قحط أو غيث أو غزو، فيسندون وقت الخبر الحادث إلى ذلك الزمن، ويتناقلون هذا الأمر عن طريق الرواية[١]، وقد ورد في بعض النقوش العربية الموجودة في جهات من شبه الجزيرة العربية الاعتماد على حساب معين في التاريخ للحوادث[٢]، حتى كان العام الذي حصلت فيه هجرة النبي ﷺ بداية للتاريخ عند المسلمين وارتباط الوقائع به[٣]، ورواية أخبار هذه الوقائع للأجيال التالية مقسماً بشهوره وأسابيعه وأيامه، فاصلاً لعهدين من عهد الجاهلية بأخبارها، فيؤرخ لها بما قبل الهجرة، وعصر الإسلام بما بعد الهجرة.

ولكي يتحدد معنى التاريخ في الاصطلاح، فقد اختلفت عبارات العلماء في بيانه نظراً لسعة موضوعاته وتنوعها، وكثرة المتعلقات به[٤].

وسأعرض ههنا ما وقفت عليه من تعريفات اصطلاحية، وهي:

أولاً: عرّفه ابن خلدون رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٨٠٨هـ) بعدة تعريفات مبيناً أن التاريخ تاريخان:

أولهما: «ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل»[٥].

---

(١) انظر: أدب الكتاب ص٢٤٦، المدخل إلى علم التاريخ ص٣٥.

(٢) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٥٠٩/٨) فما بعدها.

(٣) انظر ما يتعلق باعتماد التاريخ الهجري في: أدب الكتاب ص٢٤٦، الأزمنة والأمكنة ص٤٦٤، الإعلان بالتوبيخ ص١٣٨، الشماريخ في علم التاريخ ص٢٧.

(٤) انظر: منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص٥٢.

(٥) المقدمة ص٣٢.

وثانيهما: «ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار»[١].

وعرف التاريخ بعمومه قائلاً: «خبر عن الاجتماع الإنساني»[٢].

وشرح هذا التعريف بقوله: «الذي هو عمران العالم، ويعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، مثل: التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث من ذلك من العمران بطبيعة من الأحوال».

ويقرب مما ذكر ابن خلدون ما عرفه به المقريزي (ت٨٤٥هـ) بأنه «الإخبار عما حدث في العالم في الزمان الماضي»[٣].

وقول الكافيجي[٤]: «علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله وأحوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته»[٥].

وقال السخاوي (ت٩٠٢هـ): «فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيث التعيين والتوقيت عما كان في العالم»[٦].

---

(١) المقدمة ص٣٥.

(٢) المقدمة ص٣٥.

(٣) نقله صاحب منهج كتابة التاريخ الإسلامي عن كتاب علم التاريخ عند المسلمين ص٥٣ دراسة لفرانز روزنثال بين يدي كتاب المختصر للكافيجي.

(٤) محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود محيي الدين أبو عبدالله الكافيجي ـ نسبة إلى الكافية في النحو لكثرة اشتغاله بها، والجيم زيادة في النسبة على عادة الترك ـ فقيه نحوي بارع في المعقولات، قدم القاهرة من تركيا وتصدى للتدريس والإفتاء وانتهت إليه رئاسة الحنفية بمصر، وكان معظماً عند الملوك، أثنى عليه السخاوي، وتوفي سنة تسع وثمانين وثمانمائة، وله إحدى وتسعون سنة.
انظر: الضوء اللامع (٢٥٩/٧)، مقدمة التيسير في قواعد علم التفسير للمطرودي.

(٥) نقله صاحب منهج كتابة التاريخ الإسلامي عن كتاب المختصر للكافيجي ص٥٣.

(٦) التوبيخ ص٧.

وقال حاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ): «علم يبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم»[١].

وعرّفه د. جواد علي بأنه: «تحليل ووصف لما وقع ويقع»[٢].

والتعريفات ههنا عرفته باعتبار حقيقته وموضوعه وكلها متقاربة إلا التعريف الأخير، فقد أضاف إليه الغاية منه وهو التحليل له، وقد أشار إليه ابن خلدون بقوله: «إذ هو ـ أي: علم التاريخ ـ في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلمٌ بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق»[٣].

والذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن تحليل التاريخ وتعليله زائد عن حد التعريف وحقيقة التاريخ الذي يتوجه إليه اصطلاح التاريخ متى أطلق وذلك للآتي:

أولاً: أن تحليل التاريخ وتعليله غاية من غايات علم التاريخ وأثر من آثاره.

ثانياً: أن تحليل التاريخ وأخذ العبرة منه يختلف باختلاف الناظر إلى التاريخ ومشربه وسعة علمه ومذهبه وجنسه وعصبيته... الخ.

وهذا مما لا شك له أثر كبير في كتابة التاريخ أصلاً باعتباره خبراً، فكيف إذا قرن إلى ذلك التحليل والتعليل.

ومن هنا فيمكن القول: «إن التاريخ خبر عما كان في العالم من وقائع الزمان من حيث التعيين والتوقيت».

---

(١) كشف الظنون (٢٧١/١).
(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٦/١٠).
(٣) المقدمة ص٣، ٤ (باختصار).

وإنما قلت: «خبر» لأن علماء التاريخ يختلفون في عده علماً أو فناً أو أدباً، والذي يظهر أن التاريخ هو ذلك كله، فهو علم من جهة أن له أصول وقواعد ومناهج، وفن باعتبار أنه لا يعتمد على الملاحظة أو التجربة إذ ينسجم مع العلوم الاجتماعية الأخرى، وهو أدب في طريقة عرضه للمتلقي وترتيب أحداثه ووقائعه[1].

فالتاريخ في مجمله أخبار تروى.

وقولي: «عما كان في العالم»؛ لأن الإخبار متعلق بما يحدث في العالم من وقائع الزمان وحوادثه باعتبار الوقت الذي حصل فيه، أو باعتبار الجيل، أو المكان، أو الفئة أو غير ذلك.

وقبل تجاوز هذا المبحث، لا بد من الإشارة إلى أن هذا هو المراد بالتاريخ عند الإطلاق، وقد يطلق التاريخ ولا يراد به إلا معنى مقيد ببلد كتاريخ بغداد، أو طائفة كتاريخ الصحابة، أو تاريخ الرواة المعروف في كتب المصطلح الذي يقصد به ضبط أحوال الرواة من ولادة ووفاة وشيوخ وتلاميذ وعدالتهم.

❋ ❋ ❋

المبحث الثاني:
تعريف السنّة

المطلب الأول:
السنّة في اللغة

كثرت إطلاقات كلمة السنّة في اللغة، وتعرض أهل العلم لهذه الإطلاقات في كتب اللغة والغريب والتفسير وشرح الحديث.

(١) انظر المدخل إلى علم التاريخ ص٩٥ فما بعدها.

ويوجز هذا الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ) في تفسيره فيقول: «وفي اشتقاق هذه اللفظة وجوه:

الأول: أنها فُعله بمعنى مفعول، من سن الماء يسنّه إذا والى صبه، والسن الصب للماء، والعرب شبهت الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب فإنه لتوالي أجزاء الماء فيه على نهج واحد يكون كالشيء الواحد.

ثانيها: أنها تكون من سننت النصل، والسنان أسنه سناً فهو مسنون إذا حددته على المسن، فالفعل المنسوب إلى النبي ﷺ سمي سنة على معنى أنه مسنون.

ثالثها: أن يكون من قولهم: سن الإبل إذا أحسن الرعي، والفعل الذي داوم عليه النبي ﷺ سمي سنة بمعنى أنه عليه الصلاة والسلام أحسن رعايته وإدامته»[(١)].

والسنّة بمعنى الطريقة[(٢)]، والطريقة ههنا هي المتبعة للخير والشر[(٣)].

وكل من ابتدأ أمراً عمل به قوم بعده فهو سنة[(٤)].

ومن هذين المعنيين قوله عليه الصلاة والسلام: «**من سنّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنةً سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»[(٥)].

---

(١) تفسير الفخر الرازي (٣/٣٧٠) «بتصرف يسير».

(٢) هدي الساري ص٢٣٤.

(٣) تفسير البغوي (٢/١٠٩)، لسان العرب (٢/٢٢٢).

(٤) لسان العرب (٢/٢٢٣).

(٥) أخرجه مسلم في الزكاة، باب الحث على الصدقة ١٠١٧، وفي الذكر والدعاء باب من سنّ سنّة حسنة بطرق عن جرير بن عبدالله البجلي ﷺ به، وانظر: مادة سنن في كل من غريب الحديث للخطابي (١/٤٣٨، ٥٢٢، ٦٢٢)، الصحاح (٢/١٥٦٩)، =

المطلب الثاني:
السنّة في الاصطلاح والفرق بينها وبين الحديث

تبيَّن من التعريف اللغوي أنه يمكن أن يُقال عن سنته ﷺ: إنها طريقته التي كان يتحراها[(١)]، سواء في أقواله أو أفعاله أو تقريراته أو صفاته الخُلقيّة إذ هو بها المثال المتبع والإمام المؤتم به[(٢)]، لأن سنة الإنسان هي الشيء الذي يعمله ويواليه[(٣)]. قال ابن الأثير رحمه الله (ت٦٠٦هـ): «وقد تكرر ذكر السنّة وما تصرف منها، والأصل فيها الطريقة والسيرة»[(٤)].

وإذا تتبعنا اصطلاح السنة في كلام أهل العلم نراه في كلام المحدثين وفي كتب المصطلح والشروح الحديثية قد تطور إطلاقها على معنيين:

المعنى الأول: ما ورد عن النبي ﷺ وأصحابه والتابعين[(٥)] على اختلاف بينهم فمنهم من يطلق، ومنهم من يخص الصحابة دون التابعين، ومنهم من يخص الخلفاء الراشدين في اعتقاداتهم وأعمالهم وأقوالهم[(٦)].

وهذا الإطلاق هو المعنى اللغوي الذي هو الطريقة المسلوكة.

وإدخال الصحابة رضي الله عنهم لأنهم عاصروا الوحي وشهدوا التنزيل، فتكون

= مفردات القرآن ص٣٥٦، المغرب في ترتيب المعرب (٤١٧/١)، مختار الصحاح ص٣١٧، المجموع المغيث في غريب القرآن والحديث (١٣٧/٢)، وتراجع كتب التفسير وشروح الحديث في مفردة السنة، وممن أفاض في بيان اشتقاق هذه الكلمة د.عبدالغني عبدالخالق في كتاب حجية السنة ص٤٥.

(١) انظر: مفردات القرآن ص٣٥٧.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٠٠/٤).

(٣) انظر: تفسير ابن عطية ص٣٥٩.

(٤) انظر: النهاية (٤٠٩/٣)، وقد أفاض الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله في تقرير هذا المعنى من خلال الأحاديث التي ذكرت فيها لفظة السنّة في رسالة السنّة النبوية وبيان مدلولها الشرعي ص٩.

(٥) انظر: شرح مختصر الروضة (٦٣/٢).

(٦) انظر: جامع العلوم والحكم (١٢٠/٢).

آراؤهم أقرب إلى الصحة وفهمهم للتنزيل أدق من غيرهم، وربما كان لقول الصحابي في بعض الأحوال مكانة السنة، وذلك إذا أخبر عن شيء لا مجال للرأي فيه. وكذلك التابعون لقرب عهدهم بعصر النبوة وتلقيهم العلم من الصحابة ﷺ ويقوى هذا في حق كبار التابعين.

وفي الجانب العملي، نرى أن طائفة من الأئمة أدخلوا الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين ضمن كتبهم التي جمعوا فيها حديث النبي ﷺ وسموها بالسنن كما في كتاب السنن لسعيد بن منصور والسنن للدارمي وغيرهما.

المعنى الثاني: حصر السنّة بما ورد عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خُلقيّة أو سيرة.

وهو بهذا المعنى قريب من معنى الحديث أو هما بمعنى واحد إذ هكذا عرّفه الأئمة رحمهم الله في كتبهم، مع أن الأولين أطلقوا كلمة الحديث على أقوال الصحابة والتابعين وهذا قبل استقرار الاصطلاح[1].

وعند تأمل إطلاق كلمة الحديث عند أهل الفن فنجده يشمل الإسناد والمتن معاً ويظهر هذا في أمرين:

الأول: توارد عندهم في عدد محفوظات المحدثين أنه يحفظ كذا وكذا حديثاً، وهم لا يريدون عدد ما يحفظ من متون، بل يقصدون المتن والأسانيد التي روي بها المتن، وكأنه يراد بالحديث ما تحدث به الراوي من كلام منسوب إلى النبي ﷺ بسنده إليه من قوله وفعله وتقريره وصفاته وسيرته.

الثاني: يلحظ عندهم أنهم قسموا علوم الحديث إلى علوم متعلقة

(١) انظر: الخلاصة ص٣٣، فتح المغيث (١/١٠)، شرح شرح النخبة ص١٤٣، توجيه النظر ص٤٠، الوسيط ص١٥، وانظر: مجموع الفتاوى (١٨ /٤ ـ ١٦).

بالسند وأخرى متعلقة بالمتن، والسند والمتن بهذا يسمى عندهم حديثاً.

ومن هنا اختلفوا في الفرق بين الحديث والسنّة فمن قائل: إن الحديث أعم، ومن قائل: بل السنة أعم[1]، وآخر يذهب إلى العود نحو المعنى اللغوي الذي كانت به السنة معروفة به عند السلف، فلا تلازم بين السنة والحديث في شخص حاملها فقد يكون محدثاً وليس بسني لتلبسه ببدعة تخالف طريق السلف[2].

والذي يظهر أن هذا التفريق لا فائدة منه الآن إلا من جهة معرفة اصطلاح العلماء لأن معرفة الواقع العملي والطريقة المسلوكة للنبي ﷺ بعد عصره لا يمكن معرفته إلا بحديث بسنده بشروط معتبرة إلى النبي ﷺ، فعاد الأمر إلى أن السنّة هي الحديث، والحديث هو السنة.

وقد دلّ على هذا القول ـ أعني: تسمية السنّة بالحديث والعكس ـ ظاهر كلام النبي ﷺ والسلف الصالح والعلماء بتسمية الكلام المحتج به بياناً للقرآن الكريم، وموضحاً له في مقام الحجة في العقائد والأحكام والآداب والفضائل... إلخ، الصادر عن النبي ﷺ قولاً وفعلاً وتقريراً وصفة وسيرة والذي يوسم بالحديث سموه سنة، واستيعاب كلامهم في هذا يطول؛ أقتصر من ذلك على نماذج:

فقد قال النبي ﷺ: «**ومن رغب عن سنتي فليس مني**»[3].

والسنّة هنا: بمعنى الطريقة[4]، المستفادة من قوله وفعله وتقريراته

---

(١) انظر: كشاف اصطلاحات الفنون (٣٧٩/١).

(٢) انظر: فتاوى ابن الصلاح ص٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح، باب الترغيب في النكاح رقم ٥٠٦٣، عن محمد بن جعفر، ومسلم في النكاح رقم ١٤٠١ عن حماد بن سلمة كلاهما عن حميد الطويل عن أنس ﷺ، وفي الحديث قصة مشهورة.

(٤) انظر: فتح الباري (١٥/٩).

وسيرته وهديه عليه الصلاة والسلام، الذي هو الحديث.

وقال عمر ﷺ لرجل: «هديت لسنّة نبيك»[1].

وقرر هذا المعنى في أوضح بيان الإمام الشافعي رحمه الله (ت٢٠٤هـ) في الرسالة عند كلامه عن السنة والحديث والبيان والحكمة[2].

ودرج هذا في كلام الأئمة سواه فقد قال ابن المبارك رحمه الله (ت١٨١هـ): «السنن عن النبي ﷺ نحو تسعمائة حديث»[3].

وقال الإمام أحمد رحمه الله (ت٢٤١هـ) عندما سئل عن كتابه المسند: «عملت هذا الكتاب إماماً إذا اختلف الناس في سنة رسول الله ﷺ رجع إليه»[4].

وقال إسحاق بن راهويه رحمه الله (ت٢٣٨هـ) لطلابه: «لو جمعتم كتاباً مختصراً لصحيح سنّة رسول الله ﷺ، قال الإمام البخاري رحمه الله (ت٢٥٦هـ): فوقع ذلك في قلبي فأخذت في جمع الجامع الصحيح»[5].

وقال الإمام مسلم رحمه الله (ت٢٦١هـ) في كلامه عن الحديث المعنعن من المقدمة بعد أن مثّل بحديثين في قضية عرضها: «بل هما وما أشبههما عند من لاقينا من أهل العلم بالحديث من صحاح الأسانيد وقويها، يرون

---

(١) أخرجه أبو داود في المناسك باب في الإقران رقم ١٧٩٨، عن منصور والنسائي في المناسك باب القران رقم ٢٧٢٠ عن منصور ومجاهد، وابن ماجه في المناسك باب من قرن الحج والعمرة رقم ٢٩٧٠، عن عبدة بن أبي لبابة والأعمش، أربعتهم عن أبي وائل عن الضبي بن معبد عن عمر ﷺ به، وصححه ابن خزيمة عن منصور (٣٠٦٩/٤)، وابن حبان (٢١٩/٩، ٢٢٠) عن عبدة ابن أبي لبابة.

(٢) انظر: فهارس الرسالة.

(٣) رسالة أبي داود إلى أهل مكة في وصف سننه ص٢٧.

(٤) خصائص مسند أحمد ص٢٤.

(٥) هدي الساري ص٧.

استعمال ما نقل بهما والاحتجاج بما أتت من سنن وآثار»[1].

وقال أبو داود رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٢٧٥هـ): «وقد ألفته ـ أي: كتابه السنن ـ نسقاً على ما وقع عندي، فإن ذكر لك عن النبي ﷺ سنة ليس مما خرجته فاعلم أنه حديث واه»[2].

ثم كان الواقع العملي في عمل مصنفي الحديث المحققين حيث سموا كتبهم بالسنن، وقصروا ما فيها على ما ورد عن النبي ﷺ كما في فعل أبي داود والنسائي، وابن ماجه والدارقطني وغيرهم.

ومن هنا ظهر المعنى للسنة الذي يمكن إيجازه بقولنا: كل ما ثبت عن النبي ﷺ.

❋ ❋ ❋

المبحث الثالث:

تعريف تاريخ السنّة في الاصطلاح

تاريخ السنة بهذا الإطلاق لم يكن معروفاً عند من كتب في علوم الحديث، وإن كانت متعلقاته مبثوثة في كتبهم.

وأول من وقفت من المعرفين له الشيخ محمد بن عبدالعزيز الخولي رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: «تاريخها ـ أي: السنّة ـ الأدوار التي تقلبت فيها من لدن صدورها عن النبي ﷺ إلى أن وصلت إلينا»[3].

وهذا التعريف دلّ على جلّ المعنى المراد، لأن التاريخ لا يتعلق

(١) مقدمة صحيح مسلم ص٦٨٠.

(٢) رسالة أبي داود إلى أهل مكة في وصف سننه ص٢٧.

(٣) تاريخ فنون الحديث ص١١، وسيأتي التعريف بالمؤلف والكتاب آخر البحث إن شاء الله.

بالسنّة بل يتعداه إلى متعلقاتها من العلوم المختلفة التي تولدت مع الحركة العلمية لرواية وتدوين السنّة مثل علم الرجال، وعلم المصطلح، ومناهج المحدثين. . . إلخ.

ولذا؛ يمكن أن يعرف تاريخ السنّة بالآتي:

«خبر عن الأطوار التي مرت بها السنّة من لدن صدورها عن النبي ﷺ وما تولد عنها من علوم حتى وصلت إلينا».

فقولي: خبر، موافق لما عرفت به التاريخ إذ حقيقته خبر.

عن الأطوار: ويعبر بعض المعاصرين عن هذا بالأدوار، والأول فيما أعلم ألصق بعبارات الأولين في التعبير عن النقاط المفصلية لخبر تاريخ السنة.

وكلِ طور يوجز في تعريفه عن السمة البارزة عما حصل في فترة زمنية محددة، وما جرى في هذا الطور من تطور في علم السنّة، والظروف التي أحاطت بهذه الفترة، والشبهات التي أثيرت إلى غير ذلك.

وبقولي: السنّة؛ خرج ما عداها من علوم.

وقولي: صدورها عن النبي ﷺ، تأكيد للمعنى المختار في تعريف السنّة، فخرج به ما صدر عن الصحابة والتابعين.

وعندما نتأمل كتب تاريخ السنّة فإنا نتوقف عند ملحظين:

الأول: أن أكثر هذه الكتب قد حوت هذا المعنى إلا أنها خرجت من مجرد الإخبار إلى التحليل والنقد والرد على الشبهات المثارة حول السنّة وعلومها.

وقد سبقت الإشارة إلى أن هذا غاية من غايات التاريخ عامة، انطبق هٰهنا لأن الحديث دعى إليه حيث آثار مناوئو السنة شبهاً أرادوا بها الطعن في السنّة أخذوها من وقائع في تاريخها الطويل، فاستلزم عرض تاريخها من

الطرف الآخر لإبراز جانب الكمال في هذا التاريخ ورد الشبه المثارة، كما سيأتي بيانه في الفصل الأخير من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

الثاني: يضم بعض المؤلفين في هذا العلم علماً آخر حتى يكاد أن يكون هو السمة الغالبة على الكتاب وهو مناهج المحدثين.

وإذا تأملنا واقع الأمر وجدنا أن مناهج المحدثين علم تفرع عن علم تاريخ السنّة، لأن العرض التاريخي للمراحل التي مرت بها السنّة، وما قام به العلماء لخدمتها وحفظها، فقد تولد عن ذلك طرائق ومناهج اختطوها لحفظ السنّة من جهة الرواية، ومن جهة التدوين ومن جهة التصنيف والتنوع فيه، ثم من جهة مدارسة السنّة ومذاكرتها وتعليمها وتعلمها، وهذا ما يعرف بمناهج المحدثين.

الفصل الثاني
أهمية علم تاريخ السنّة وموضوعاته

المبحث الأول:
أهمية علم تاريخ السنّة وفوائده

إنّ علم تاريخ السنّة بتعريفه الذي أوردناه مرتبط بجهتين:

علم التاريخ باعتباره إخبار عما مضى، والسنّة المطهرة وعلومها باعتبار توجه الخبر إليها.

ومعلوم أن التاريخ قد أشاد الله بفضله وذلك بذكر الأولين من الأنبياء والأمم والأقوام الأولين والتي هي في حقيقتها تاريخ كما يقول الأستاذ

محمد كرد علي[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو كان من حرموا التاريخ يتدبرون القرآن لأدركوا أن ما جاء فيه من أخبار الماضي: هو التاريخ مقروناً إلى فلسفته والتعليق عليه»[2].

ولو لم يكن من فضل التاريخ إلا ما ذكره ربنا جلَّ ذكره: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١]، لكفى إشادة بعلم التاريخ وبيان فضله وثمرته.

ومن هنا يتبين أن السبيل لمعرفة الوقائع وفهمها لا بد فيه من معرفة تاريخها ليتحصل التصور والإدراك تتم الاستفادة منها من نتائجها في مستقبل الأيام، فحينئذ فتاريخ أي شيء تبرز ثمرته في معرفة الماضي ليفهم به الواقع ويستشرف به المستقبل.

ومن طرائق البحث التي سار عليها العلماء في تصانيفهم أن يقدموا مقدمةً تاريخية للعلم الذي يصنفون فيه بذكر مبادئه وأوائل المصنفين فيه وميزاتهم حتى عصر مصنف الكتاب، وما كان ذلك إلا لإدراك أن فهم العلم الذي يريدون التصنيف فيه مرتبط بمعرفة تاريخه، ولذا جرى في تصانيف المعاصرين ما يسمونه بالمدخل التاريخي.

ومن يطالع السنّة النبوية فهو محتاج يقيناً إلى معرفة تاريخها من لدن صدورها عن النبي ﷺ إلى وقته ليستطيع فهم السنّة المطهرة والظروف التي

(١) محمد بن عبدالرزاق بن محمد كرد علي الدمشقي الكردي من كبار كتاب العصر، ورئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ومؤسسه، وصاحب مجلة المقتبس، ولي وزارة المعارف بالشام مرتين، وتنقل بين دمشق والقاهرة، وكان غزير الإنتاج العلمي توفي سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة وألف، وله تسع وثمانون سنة، انظر: المذكرات له، الأعلام (٦/٢٢)، معجم المؤلفين (١٠/١٦٢).

(٢) المذكرات لمحمد كرد علي (٤/١١٦٧).

أحاطت بها، وما قيل في فوائد علم التاريخ منطبق هٰهنا في علم تاريخ السنّة[1].

وتتضح بعض فوائد علم تاريخ السنّة بما يلي:

١ ـ الوقوف على المراحل التي مرت بها السنّة منذ صدورها عن النبي ﷺ عبر العصور حتى عصرنا الحاضر.

٢ ـ معرفة الأطوار التي مرت في تحديد معنى السنّة ومنزلتها وحجيتها ومنازعة من نازع في ذلك.

٣ ـ الإحاطة بالجهود التي بذلها المحدثون في سبيل حفظ السنّة حيث واصلوا الليل بالنهار، وطافوا البلاد بالأسفار، وبذلوا الغالي والنفيس في سبيل ذلك بحيث يقف المرء على صور عجيبة من صنوف البذل والعطاء، وإفناء الأعمار، واحتمال الصعوبات كل هذا لهدف سام عظيم وهو محبتهم للنبي ﷺ وحرصهم على حديثه وحفظه، ليتعرف من سار على درب هؤلاء ممن جاء بعدهم فضلهم ومكانتهم، وليأخذ من حرصهم وغيرتهم على السنّة ما يجعله حقيقاً بالانتساب إليهم.

٤ ـ تتبع الطرائق التي انتهجها المحدثون لحفظ السنّة المطهرة، واشتراطهم شروطاً دقيقة تتعلق بالراوي والمروي لتصل السنّة النبوية إلينا نقية صافية، فطوى الزمان، فكأن المرء مهما ـ تأخر زمنه ـ بهذه الطرائق حاضر مع صاحب السنّة صلوات الله وسلامه عليه عياناً.

٥ ـ الإعانة على فهم المصطلحات الحديثية وتطورها عبر الأزمان.

٦ ـ تحديد العلوم التي تولدت عن السنّة عبر تاريخها الطويل، وأسباب ظهورها وتطورها.

---

(١) ساق الحافظ السخاوي رحمه الله نقولاً ماتعاً عن أساطين علم التاريخ في فوائد هذا العلم، وذلك في كتابه الإعلان بالتوبيخ ص٣١ فما بعدها.

٧ ـ تعرف التصانيف التي دونت فيها السنّة وعلومها وأنواعها ومناهجها والمراحل التي مرت بها.

٨ ـ تلمس الأسباب التي أدت إلى انتشار السنّة في مختلف البلدان وتحديد مخارج السنن.

٩ ـ العلم بالكيفية التي تُلقيت بها السنّة عبر العصور، وكيف كان النبي ﷺ وأصحابه ومن بعدهم من المحدثين يبلغون بها السنّة ومناهجهم في التعليم.

١٠ ـ النظر إلى الشبهات التي أثيرت حول السنّة المطهرة، وتطورها الزمني حيث أن كل شبهة تثار حول السنّة لها أصلها القديم ممن عارض السنّة بالرأي المجرد عن دليل معتبر، أو لإرادة الطعن في الدين الحنيف، والرد عليها وإبطالها.

١١ ـ تلمس تأثير الأحوال السياسية والاجتماعية والمذهبية والعلمية على السنّة النبوية على مر العصور.

١٢ ـ معرفة الشخصيات العلمية والقيادية سياسياً وإدارياً التي ساهمت بنشر السنّة وحفظها على مدى الأزمان، والعكس كذلك فيمن انحرف عن فهم السنّة من هؤلاء أو حاربها.

١٣ ـ استشراف المستقبل للسنّة وعلومها الذي به يفهم الواقع من خلال استيعاب تاريخ السنة وما فيه من وقائع وأحوال.

❋ ❋ ❋

المبحث الثاني:

الموضوعات التي يتناولها علم تاريخ السنّة

العلوم بصفة عامة يسري عليها ما يسري على جميع الحوادث في هذه

الحياة تبدأ صغيرة ثم تتطور إلى أن تصل إلى مرحلة النضج والاكتمال، وعندما نتأمل الكتب التي ألفت في تاريخ السنّة نجد أن الأكثر منها كما أسلفت لم يتوقف عند مجرد العرض التاريخي المشار إليه في التعريف بل تجاوز هذا إلى التحليل والنقد والرد على الشبهات، إن لم تكن جملة كبيرة من هذه الكتب إنما أُلِّفت لأجل الرد على الشبهات وتفنيدها.

وإذا كان البحث معقود لتأصيل هذا العلم وتحديد قضاياه التي يتناولها بغض النظر عن الكتب التي تعرضت تطبيقياً لهذا العلم، فإن المقصد لكل مؤلف يختلف عن الآخر، وتبعاً لذلك فقد تجري كتب على وفق التعريف الذي عرفت به علم تاريخ السنّة، وهذا هو الأصل، وبعضها يركز على قضية أو قضايا محددة تتعلق بفترة زمنية أو نوع من العلوم المتفرعة عن السنة، وبعضها يجري على نفس دفاعي وآخر هجومي وهكذا، ومن هنا فيمكن حصر قضايا هذا العلم وفق التعريف فيما يأتي:

أولاً: التعريف بتاريخ السنّة، إفراداً وإضافة لغة واصطلاحاً وتحريره عما يشابهه من اصطلاحات.

ثانياً: حجية السنّة ومنزلتها بالنسبة للقرآن والشرع، وما تفيده سواء كانت متواترة أو آحاداً، وبيان فضلها، وفضل الاشتغال بها، وفوائد دراستها.

ثالثاً: العرض التاريخي للسنّة وعلومها، والعوامل المؤثرة عليهما وبدايته من:

السنة في العهد النبوي، وكيف بلّغها النبي عليه الصلاة والسلام؟ وما الأساليب التي اتبعها؟ وكيف تلقاها الصحابة الكرام ﷺ؟ وعوامل انتشار السنّة في هذا العهد.

ثم يبدأ العرض التاريخي وله منهجان في العرض:

المنهج الأول: العرض باعتبار القرون الزمنية والجيل والطبقة والعصر فيقال السُّنّة في القرن الأول، ويذكر ما يتعلق بتاريخ السنّة في هذا القرن ثم

الثاني وهكذا وربما ضم قرن إلى قرن فتذكر قرون مجتمعة وذلك لتشابه ما فيها.

ومن هذا المنهج عرض السنّة باعتبار الطبقة في ذلك العصر كعرض السنّة في عهد الصحابة، ثم التابعين ثم أتباعهم وهكذا وقد تضم طبقة إلى أخرى كالأول(١).

المنهج الثاني: عرض تاريخ السنّة بعد عهد النبي ﷺ باعتبار السمة البارزة في ذلك العصر على تنوع كثير في تحديد هذه السمات(٢).

ويظهر لمطالع تاريخ السنّة أن هناك نقاطاً مفصلية كانت فاصلاً بين مرحلتين في تجاوز ما كان معتمداً في المرحلة السابقة له، لينتقل إلى منهج جديد وطريق يختلف عما سبقه بظروفه وأحواله وطرقه ومناهجه، ويمكن إظهار هذه المفاصل بما يلي:

١ ـ الجمع والرواية: حيث كانت السنّة مقتصرة على التلقي والرواية، وقيام بعض المحدثين بجمع الحديث من مخارجه، وما جرى في هذا الطور من قواعد وشروط دعت إليها الحاجة لضبط السنّة وحفظها. وهذا الجمع كان ظاهراً في الرواية الشفهية أو تدوين المسموعات في الصحائف.

---

(١) انظر: الحديث والمحدثون حيث جمع بين الأمرين وقسم أطوارها إلى سبعة أطوار السنّة في عهد النبوة ـ السنّة زمن الخلافة الراشدة ـ السنّة بعد الخلافة الراشدة إلى نهاية القرن الأول ـ السنّة في القرن الثاني ـ السنّة في القرن الثالث ـ السنّة بين عام ٣٠٠ ـ ٦٥٦ ـ السنّة من عام ٦٥٦ إلى عصرنا الحاضر، وانظر أيضاً: الحديث النبوي تاريخه ومصطلحاته، د.بدران أبو العينين، كتاب تدوين السنّة د.محمد مطر الزهراني، وعلى هذا الترتيب كتاب السنّة قبل التدوين، د.محمد عجاج الخطيب وغيرها.

(٢) انظر: المنهل الحديث في علوم الحديث للشيخ محمد بن عبدالعظيم الزرقاني حيث قسم أطوار تاريخ علوم الحديث إلى: طور التمهيد والتفكير، طور التلقيح والتحضير، طور النمو والمزيد، وطور التهذيب والتقريب، وطور الوقوف والركود، وطور الانتعاش الحاضر، وانظر: تاريخ فنون الحديث وسيأتي الكلام عنه، وانظر: منهج النقد في علوم الحديث، د.نور الدين عتر.

٢ ـ التدوين الرسمي: وهو اهتمام الدولة في ذلك الوقت بتدوين حديث رسول الله ﷺ في كتب، وصار منهجاً رسمياً للمحدثين، ويحدد هذا بأمر أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز رحمه الله (ت١٠١هـ) لفقهاء الأمصار بالتدوين[١].

٣ ـ التصنيف: حيث انتقل الحديث من مجرد الجمع إلى التصنيف على الأبواب والكتب والمسانيد ويبدأ هذا من منتصف القرن الثاني الهجري.

٤ ـ الرواية حيث انتهى جمع الأحاديث بنهاية القرن الثالث الهجري بحيث لم يبق شيء من السنّة المعروفة إلا دون، وما كان بعد ذلك، فإنما هو استخراج تلك الأحاديث من غير مخارجها المشهورة عند مصنفي ذلك القرن، ولم يوجد بعد ذلك حديث غاب عن الأئمة الكرام إلا ما هو منكر، أو مسروق أو موضوع.

٥ ـ الاستنباط والتأصيل للسنّة وعلومها وتحقيق وتدقيق قواعد الرواية والدراية، وهي وإن كانت مصاحبة للعصور السابقة إلا أنها كانت المعلم البارز لما بعد القرن الثالث الهجري حتى القرن العاشر الهجري.

٦ ـ الضعف والانحطاط الذي أصاب الأمة بانتقال العلوم إلى مجرد التحشية والنقل عمن سبق، والاقتصار على الإجازات، ويبدأ هذا من القرن العاشر الهجري تقريباً.

٧ ـ ظهور الطباعة حيث انتقل العلماء في نشر الكتب من الطريقة السابقة المبنية على النسخ والمقابلة والإجازة، إلى انتشار الكتب بين يدي الخاص والعام، وكان دخول الطباعة العالم العربي بدخول حملة نابليون بونابرت إلى مصر عام ١٢١٣هـ، وإن كانت طباعة الكتب قد عرفت قبل ذلك في أوروبا، وطبعت هناك جملة من الكتب العربية، وبهذا

(١) انظر: تدوين السنّة لمحمد مطر الزهراني ص٨٥.

سهل النشر، بحيث أن كل دارس للسنّة مهما كانت وجهته يستطيع أن ينشر ما شاء[1].

٨ ـ الحركة الاستشراقية حيث انصرف الغرب إلى دراسة العلوم الشرعية وأبرزها السنّة وعلومها بطرق ومناهج جديدة تأثر بها بعض المنتسبين إلى المسلمين فولّدت جملاً من الشبهات والإشكالات.

٩ ـ النهضة المعاصرة في خدمة السنّة وعلومها، وظهور طرائق في البحث جديدة، ودعت الحاجة إلى التوسع والابتكار والتجديد اعتماداً على جهود السالفين والاستفادة من الجديد لخدمة السنّة والرد على مناوئيها.

(١) انظر الكلام عن الطباعة وتاريخها وتاريخ دخولها العالم الإسلامي ثم العربي في: الموسوعة العربية العالمية (١٥/٥٤٢).

الباب الثاني
تاريخ علم تاريخ السنّة والمؤلفات فيه

الفصل الأول
ظهور علم تاريخ السنّة

المبحث الأول:
علم تاريخ السنّة عند المحدثين الأولين

إن ظهور علم تاريخ السنّة على المعنى الذي ذكرت كعلم له قواعد وأصول وكتب لم يظهر إلا في القرن الرابع عشر الهجري، على أن متعلقاته مبثوثة في كتب السابقين، ويصعب على الناظر أن يحصر أماكن وجودها على التحديد، وسأعرض ههنا بعض النماذج لاهتمام السابقين بهذا العلم:

١ ـ مقدمات كثير من كتب المحدثين، حيث يشير المؤلف إلى من سبقه في مجال كتابه تأسيساً وتصنيفاً، سواء كان الكلام على وجه الإشارة أو التفصيل.

فمن ذلك كتاب الجامع الصحيح للإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٢٦١هـ) حيث ذكر في المقدمة جهود العلماء والسالفين في التثبت من الأخبار وسؤالهم عن الأسانيد[١].

(١) انظر كذلك: مقدمة الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٣٦٥هـ)، حيث تعرض بالتفصيل لبدء الكلام في الرجال ومن تكلم فيه حتى عصره، وانظر مقدمة النهاية في غريب الحديث حيث تعرض ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٦٠٦هـ)، للحركة العلمية=

٢ ـ كتب مصطلح الحديث حيث لا يخلو الكلام عند كل نوع من أنواع علوم الحديث عن البيان لتطور هذا النوع عبر العصور[١].

٣ ـ إفراد أهل العلم لبعض المسائل المهمة في تاريخ السنّة بالكلام إما على سبيل الاستقلال كما فعل الخطيب البغدادي رحمه الله في كتبه: شرف أصحاب الحديث، والرحلة في طلب الحديث، وتقييد العلم.

أو على سبيل التبع كما في كتاب الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب، وكتاب جامع بيان العلم وفضله لحافظ المغرب ابن عبدالبر رحمه الله (ت٤٦٣هـ).

٤ ـ في جانب التراجم للأئمة الحفاظ الذين كان لهم أثر كبير في تاريخ السنّة من جهة العناية والحفظ والتدوين أو التصنيف أو الرحلة أو وضع قواعد لعلم من العلوم المتعلقة بالسنّة المطهرة، ومن نماذج ذلك الواضحة كتاب تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي رحمه الله (ت٧٤٨هـ).

٥ ـ الكتب التي عرّفت الحديث وعلومه وذكر التصانيف فيهما[٢].

٦ ـ عند التعرض لقضية من قضايا تاريخ السنّة المهمة في كتب العلم المختلفة، فلو أخذنا مسألة الرحلة في طلب الحديث نجد كثيراً من الكتب تناولتها، فبالإضافة إلى كتب المصطلح نجدها في عدد من الكتب مثل كتب التفسير[٣]، وكتب الحديث[٤]، وشروح

= لعلم غريب الحديث إلى زمنه، وانظر: مقدمة جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ (٣٩/١)، هدي الساري مقدمة فتح الباري ص٦.

(١) ممن أبرز هذا أو اعتنى به الحافظ السخاوي رحمه الله في فتح المغيث.

(٢) انظر: الفهرست لابن النديم ص٢٧٧، مقدمة ابن خلدون ص٤٤٠، كشف الظنون (٦٣٥/١).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٩١٧/٢).

(٤) انظر: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما ذكر في ذهاب موسى عليه السلام في البحر إلى الخضر، وباب الرحلة في المسألة النازلة.

الحديث[1]، وكتب التراجم، والتاريخ[2]، والأخلاق والعقائد[3] وغيرها، إما على سبيل التفصيل والإجمال أو التأصيل أو عرض رحلات العلماء.

٧ ـ عند نقض الأئمة للشبهات التي يثيرها الطاعنون في السنّة في مسألة ما من مسائل تاريخ السنّة كما تراه واضحاً في كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٢٧٦هـ).

٨ ـ عند بيان مناهج الأئمة في تصانيفهم، كما في الكتب المختصة بذلك ككتب الأختام والكتب المعرفة ببعض الكتب وبعض المناهج الحديثية.

فمسائل هذا العلم وقواعده كانت ماثلة في أذهان العلماء مثل كثير من القواعد والعلوم الحديثية، إلا أنه لم تدع الحاجة إلى إفراد هذا العلم باسم مختص به في زمانهم.

❋ ❋ ❋

المبحث الثاني:

ظهور علم تاريخ السنّة كعلم مستقل بذاته

مضى الزمان حتى القرن الهجري الرابع عشر عندما اشتد توجه الغربيين إلى الدراسات الإسلامية، ومنها السنّة بالدراسة والبحث، وتبني تحقيق عدد من الكتب، وهم من غير المسلمين ونظرة غير المسلم إلى الإسلام تحكمها عقائده وتوجهاته وبيئته وتربيته الخلقية والعلمية، وكانت غاية الكثير منهم ليست بريئة، فمهما يكن لديهم من طروحات فهي تصب

(١) انظر: فتح الباري (١/٦٧، ١٧٤).

(٢) انظر: مقدمة ابن خلدون ص٥٤١.

(٣) انظر: مدارج السالكين (٢/٤٦٤).

في غالبها مصب الطعن في الإسلام وأهله[١]، وقد سلك الكثير منهم عند دراسة السنّة النبوية وعلومها مسالك عدة؛ منها:

١ ـ طعنهم في شخص النبي ﷺ وإثارة الشكوك حول نبوته ونزول الوحي عليه[٢].

٢ ـ الطعن في أعمدة الرواية من الصحابة والتابعين وكبار المحدثين[٣].

٣ ـ تبييت النية بفكرة مسبقة يُراد بها الطعن في السنّة والإسلام ثم يأخذ من الوقائع والأخبار ما يؤيد فكرته، ويتصرف بها كما يريد[٤].

٤ ـ تبني الشبهات القديمة التي أثارها المبتدعة من المعتزلة والروافض وغيرهم تجاه السنّة المطهرة.

٥ ـ الاستعانة بالشاذ والمنكر من الروايات في إنكار ما ثبت بالخبر الصحيح.

٦ ـ التركيز على دعوى اتساع دائرة الوضع في الحديث وشمولها السنّة النبوية، أو جلها[٥].

٧ ـ الطعن في الطريقة التي انتهجها المحدثون في نقل الحديث المبنية على

---

(١) للوقوف على معنى الاستشراق وأهدافه وتاريخه وأشهر المستشرقين راجع: السنّة ومكانتها في التشريع ص١٨٧، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية (٢٥/١)، موقف المدرسة العقلية من السنّة النبوية (٤١٩/١)، وفي مراجعه عدد من الكتب في هذا الموضوع، وانظر: الاستشراق لإدوارد سعيد.

(٢) انظر: موقف المدرسة العقلية من السنّة (٤٣٧/١)، ومنهجية جمع السنّة وجمع الأناجيل ص٢٣ فما بعدها.

(٣) انظر: الحديث والمحدثون ص١٣٠ ـ ١٩٨.

(٤) انظر: السنّة ومكانتها في التشريع ص١٨٨.

(٥) انظر: السنّة قبل التدوين ص٤٩، منهجية جمع السنّة وجمع الأناجيل ص٥٧ فما بعدها.

الرواية، وزعمهم أن عدم التدوين لها كان سبباً في الشك في السنّة وعدم الاعتداد بها[1].

٨ ـ تضخيم تأثير الوضع السياسي والمذهبي لجعله مسيراً للسنّة النبوية.

٩ ـ نبز علماء الحديث بأنهم اهتموا بالسند دون نظر في المتن[2].

وهذا كله يأتي في معرض كتبهم التي ألفت في السنّة خصوصاً أو في الكتب التي عنيت بالدراسات الشرعية عموماً وهي التي تعتمدها الجامعات الغربية، بعيداً عن الموضوعية في حقيقة الحال من جهة، ولاختلاف النظرة غير المسلمة إلى الإسلام، وقد تلقف هذا النهج طائفة من المسلمين فتبنوه لتبجيلهم طريقة البحث التي يسلكها المستشرقون وانبهارهم بها بزعم التجرد والموضوعية، متفاوتين فيما بينهم بين الأخذ بطرف منها، أو تبيينها بتمامها، وتحمسوا لنشرها وتقريرها، لينشأ بعد ذلك جيل تلقى هذا منهم واعتمده منهجاً، وكثير من أولئك لم يعرف طرائق المحدثين ولا فهم منهجهم على الحقيقة، والبعض منهم أسير انحرافات وأهواء فكرية لا يجدون مجالاً للتعبير عنها إلا بالتستر وراء هؤلاء المستشرقين.

ويطول الحديث في هذا الموضع عن تاريخ هؤلاء وانحرافاتهم والجهات التي تقف وراءهم والظروف التي أدت إلى ظهور هذا الاتجاه بداية من العصرانيين الهنود، وعلى رأسهم سر سيد أحمد خان[3]،

---

(١) انظر: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه (٧١/١).

(٢) انظر: كتاب اهتمام المحدثين بنقد متون الحديث، ومقاييس نقد متون السنّة.

(٣) أحمد خان ابن السيد محمد تقي المعروف بالسير سيد أحمد خان، درس مبادئ العلوم في دهلي، ثم انتظم في خدمة الحكومة الإنجليزية، وعارض ثورة المسلمين ضد الإنجليز فأكرمه الإنجليز بعد ذلك وسافر إلى إنجلترا واحتفوا به، ثم أنشأ مدرسة جامعة في علي كراه، ويعتبر رائد العصرانية في العالم الإسلامي، تدرج في موقفه من السنّة، وأنكر الغيبيات وشكك في السنّة، توفي سنة ١٣١٦هـ، وله ثلاث وثمانون سنة، انظر: الأعلام الشرقية (٤٣٥/٢)، اهتمام المحدثين بنقد الحديث ص٤٥٨، اتجاهات في دراسات السنّة قديمها وحديثها ص٩٧.

ومدرسته[1]، ومروراً بمدرسة جمال الدين الأفغاني (ت١٣١٥هـ) ثم من تأثر بهم من المثقفين والمتعلمين والصحافيين والمنتسبين إلى العلم الشرعي[2].

ويمكن إجمال طعن هؤلاء في السنّة إلى أصناف بينها بعض فضلاء المعاصرين[3] فيما يلي:

١ ـ اتجاه التشكيك في السنّة المشرفة.

٢ ـ عصرنة السنّة، أي: التوفيق بين نصوص الشرع، وبين قيم الحضارة الغربية ومفاهيمها.

٣ ـ اتجاه إنكار السنّة المطهرة.

٤ ـ اتجاه تقسيم السنّة إلى تشريعية وغير تشريعية.

٥ ـ اتجاهات فردية لمجموعة من المنتسبين إلى العلم الشرعي.

وكثير مما سبق وافق هوى بعض المبتدعة الذين يقفون موقفاً عقدياً من السنّة ونقلتها، فركبوا الموجة من أمثال الرافضة.

فمن هنا تصدى العلماء المخلصون لهؤلاء بشحذ أسنة أقلامهم بالرد عليهم والاعتماد على العرض التاريخي لإلقامهم الحجر، فامتلأت أرفف المكتبات بعدد كبير من كتب هذا العلم.

واهتم كثير ممن صنف في علم مصطلح الحديث من المعاصرين أن

---

(١) انظر الكلام عن مدرسته في الكتابين الأخيرين سابقاً.

(٢) انظر الكلام عن هذه الاتجاهات في الكتابين السابقين. وانظر: منهج المدرسة العقلية في التفسير، موقف المدرسة العقلية من السنّة النبوية، كتاب العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب.

(٣) هو د. محمد أبو الخير أبادي في كتابه القيّم اتجاهات في دراسات السنّة قديمها وحديثها ص٥٣.

يضعوا في أول كتبهم مقدمة تاريخية تظهر تطور هذا العلم.

على أنه لا يفوت الناظر أنه بانتشار القراءة والكتابة، وسهولة النشر، تيسر لعامة الناس على اختلاف درجات ثقافتهم الاطلاع على كثير من الفنون والعلوم، وهم بأمسّ الحاجة إلى من يعرفهم بكثير من مسائل علم السنّة وتاريخها، وإذا لم يوجد هذا من عالم متخصص فإنه قد يلتمسها من أولئك المرجفين، وقد يعلق بذهنه شيء من كلامهم، فكان هذا داع آخر للعلماء إلى الكتابة في هذا الفن.

وقد عمدت الجامعات في كلياتها الشرعية بوضع مادة لطلبة المرحلة الجامعية والدراسات العليا تُعنى بتاريخ السنّة، وإن اختلفت مسمياتها.

الفصل الثاني
المصنّفات في علم تاريخ السنّة

المبحث الأول:
منهج الكتابة عند من كتب في تاريخ السنّة

لما تقدم ذكره من سهولة النشر في هذا الزمان عن طريق الطباعة، وكذلك كثرة منافذ النشر من مجلات ذات أسماء كبيرة كان يشرف عليها كبار الكتاب وقد حوت كماً كبيراً من المقالات المتعلقة بالسنّة وعلومها، وهذه المجلات سهلة الوصول إلى الناس الذين تنوعوا ما بين علماء وطلبة علم ومثقفين ومهتمين بالدراسات الشرعية، ومدى إدراكهم وفهمهم يختلف كذلك فيما بينهم إذ قد أحاطوا بوجهات النظر المتعددة حول الموضوع الذين هم بصدده، ثم دور النشر المختلفة التي أصدرت كتباً تفوق الحصر متضمنة ما يتعلق بالسنّة وتاريخها، ثم ما هو حادث الآن من النشر

الإلكتروني وكل هذا يجعل المتأمل لما كتب في تاريخ السنّة من كتب ومقالات وبحوث يرى أنها تعود في الأساس إلى منهجين:

الأول: العرض التاريخي المجرد لتاريخ السنّة وعلومها أو بعض علومها، وهذا يقصد به في الغالب تعريف القراء بالسنّة وتاريخها.

الثاني: الكلام عن السنّة أو مسألة من مسائلها، ويأتي في ثنايا ذلك عرض تاريخي عام أو خاص بتلك المسألة، ويكون مبنى الكتابة هنا على الهجوم والدفاع عن السنّة.

ولا شك أن الخلفية العقدية والفكرية والعلمية والشخصية للكاتب تكون موجهة في الغالب للكتابة، فمنهم من يسلك طريق البحث العلمي الجاد الرصين في الجملة، ومنهم من يسلك طريق التشكيك أو الهجوم على السنّة بأساليب شتى، ومنهم من يسلك الجانب الدفاعي ضد هؤلاء، ويلحظ أن المنهج الثاني هو الغالب في التصانيف والبحوث، وسأعرض في المطلب التالي نماذج لعلها تعطي صورة واضحة عن هذا الأمر.

❋ ❋ ❋

المبحث الثاني:

التعريف ببعض ما كتب في فن تاريخ السنّة وعلومها

المطلب الأول: كتاب تاريخ فنون الحديث

التعريف بمؤلف الكتاب:

هو الشيخ محمد بن عبدالعزيز بن علي الشاذلي الخولي من علماء مصر الفضلاء، ولد في بلدة الحامول بالمنوفية سنة عشر وثلاثمائة وألف وتخرج في مدرسة القضاء الشرعي.

اشتغل بالتعليم إلى أن انتهى مدرساً بمدرسة دار العلوم، وكان ممن له عناية بالعلم والوعظ والإرشاد.

وكان خيراً فاضلاً، شديد الغيرة على الدين.

توفي شاباً عام تسعة وأربعين وثلاثمائة وألف ببلدته رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، ومن مؤلفاته:

١ ـ إصلاح الوعظ الديني (مطبوع).

٢ ـ الأدب النبوي (مطبوع).

٣ ـ تاريخ فنون الحديث (مطبوع)[١].

اسم الكتاب:

اسمه كما هو في عنوان الكتاب ومقدمته[٢]: تاريخ فنون الحديث، وجاء في مصادر ترجمته باسم: مفتاح السنّة.

موضوعاته:

أصل الكتاب مقال في مجلة المنار، ثم زاد عليه زيادات تزيد على نصف الأصل كما أبان رَحِمَهُ اللَّهُ في خاتمة كتابه[٣].

وقد بيّن سبب تأليفه بإعراض أهل العلم في زمانه عن تدبر الأصلين الكتاب والسنّة وانشغالهم بالفروع عنها[٤].

وقد بدأ الكتاب بتعريف تاريخ السنّة، ثم ذكر أدوار تاريخ السنّة وهي: ـ حفظها بالصدور ـ تدوينها مختلطة بالفتاوى ـ إفرادها بالتدوين ـ تجريد الصحيح ـ تهذيبها بالترتيب والجمع والشرح ـ فنون الحديث المهمة

(١) الأعلام الشرقية (٣٨٩/١)، الأعلام (٢٠٩/٦)، معجم المؤلفين (١٧٥/١٠).
(٢) تاريخ فنون الحديث ص١١.
(٣) المرجع السابق ص٢٢٨.
(٤) المرجع السابق ص١٠.

وتاريخ كل علم وأحسن المصنفات فيه، خاتمة وفيها مسائل مهمة تتعلق بكيفية الاستفادة والتقريب للسنّة لعصريي المؤلف.

وقد ضمن هذه المباحث فصولاً أخرى، مثل: مكانة السنّة من الكتاب، وتثبت الصحابة من الرواية.

مزايا الكتاب:

يمكن عرض مزايا الكتاب بما يلي:

أ ـ سبقه إلى تأصيل جملة من قواعد هذا العلم مثل تعريفه بعلم تاريخ السنّة، وتحديده أطوار تاريخها.

ب ـ سهولة فهم الكتاب من القارئ العادي إذ أنه في الأصل مقال صحفي يخاطب عموم الناس.

ج ـ استشعاره بخطورة الإعراض عن السنّة واقتراحه سبلاً لإحيائها، وانتقاده بعض التصرفات من عصرييه المنتسبين إلى العلم عدم اعتنائهم بالسنّة، واقتراح وسائل تيسير وصول السنّة إلى الناس وعملهم بها.

ملحوظات على الكتاب:

رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه، فالمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه على حال المتقدمين ممن عرفنا من العلماء الذين أخذوا من كل علم بطرف فحوته ذاكرتهم، وسالت به أذهانهم، ثم جرت به أقلامهم فلهم السبق ومنالهم الدعاء.

ولما كان أصل الكتاب مقال في مجلة فقد جرت فيه بعض المسائل التي تحتاج إلى تحرير، مثل: كلامه عن منزلة السنّة من القرآن، واستقلالها بالأحكام، وخاصة فيما قد يخالف ظاهرها القرآن[1].

(١) تاريخ فنون الحديث ص٧.

كما أن الكتاب لم يخل من حشو لا يحتاجه المتخصص كعرضه لنماذج من كتب السنّة السبعة، وإن كانت مناسبة لغيرهم من باب التعريف والبيان فهو محمدة من وجه.

❋ ❋ ❋

المطلب الثاني:
مباحث السنة وتاريخها في سلسلة فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام

التعريف بالمؤلف:

أحمد أمين إبراهيم الطباخ: أحد كبار كتاب العصر، وعضو المجامع بالقاهرة ودمشق وبغداد، غزير الإنتاج، تخرج في مدرسة القضاء الشرعي ودرّس بها، ثم تولى القضاء فترة، ثم مدرساً بكلية الآداب بجامعة القاهرة ثم عميداً لها، قال عنه الزركلي رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أكثر كتّاب مصر تصنيفاً وإفاضة».

مات سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وألف وله سبع وسبعون سنة.

وقد ترك مؤلفات عدة؛ منها:

١ ـ فيض الخاطر (مطبوع).

٢ ـ فجر الإسلام (مطبوع).

٣ ـ ضحى الإسلام (مطبوع).

٤ ـ ظهر الإسلام (مطبوع).

٥ ـ يوم الإسلام (مطبوع) وغيرها[١].

(١) انظر: الأعلام (١٠١/١١)، معجم المؤلفين (١٦٨/١)، حياتي؛ مذكرات أحمد أمين الشخصية.

التعريف بهذه الكتب:

أصل تأليف هذه الكتب ما أشار إليه أحمد أمين في كتابه: حياتي؛ إذ اتفق مع د. طه حسين (ت١٣٩٣هـ)، ود. عبدالحميد[١] العبادي، على أن يدرسوا الحياة الإسلامية في العصور المتعاقبة من أول ظهور الإسلام، فيختص هو بالحياة العقلية، وطه حسين بالحياة الأدبية، والآخر عن الحياة التاريخية[٢].

أولاً: كتاب فجر الإسلام: تحدث فيه عن الحديث من عهد النبوة إلى آخر الدولة الأموية فتناول فيه الآتي:

ـ تعريف السنّة ـ مكانة الحديث ـ تدوين الحديث بين النهي والإذن ـ التحديث بعد النبي ﷺ كان من الذاكرة ـ كراهة بعض الصحابة للتحديث ـ كثرة الرواية عن النبي ﷺ ـ وضع الحديث ودواعيه واتساع دائرته ـ تعديل الصحابة ـ عناية المحدثين بالسند دون المتن ـ المكثرون في الرواية وسبب إكثارهم لها ـ ترجمة أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما ـ تدوين الحديث رسمياً ـ أثر الحديث في الحركة العلمية[٣].

ثانياً: كتاب ضحى الإسلام: وهو يبحث عن نشأة العلوم في العصر العباسي الأول، أي: إلى منتصف القرن الثالث الهجري، وأفرد فصلاً لتاريخ السنّة في هذا العصر وتناول الموضوعات التالية:

ـ حقيقة بداية تدوين الحديث رسمياً ـ موطأ الإمام مالك ـ إفراد

---

(١) عبدالحميد بن عبدالعزيز بن منصور العبّادي ـ بتشديد الباء ـ مؤرخ من أعضاء المجمع اللغوي بالقاهرة، كان عميداً لكلية الآداب بجامعة الإسكندرية، له مؤلفات في التاريخ، توفي عام ١٣٧٥هـ، وله ست وستون سنة، الأعلام (٢٨٧/٣)، معجم المؤلفين (١٠٠/٥).

(٢) كتاب حياتي ص١٥٦.

(٣) فجر الإسلام ص٢٠٨ ـ ٢٢٤.

الحديث بالتدوين ـ المسانيد ـ منهج المحدثين في القرن الثالث ـ الإمام البخاري وصحيحه وأثره في الرواية ـ الجرح والتعديل وقيمته ـ نقد صحيح البخاري ـ الإمام مسلم وصحيحه والمفاضلة بينه وبين صحيح البخاري ـ مسند الإمام أحمد ومنزلته ـ الوضع في الحديث واتساع دائرته ودواعيه ـ جهود الأئمة في الجرح والتعديل ـ ظهور علوم الحديث ـ عناية المحدثين متجهة إلى السند دون المتن ـ رواية الحديث بالمعنى وأثرها ـ الاستشهاد بالحديث في النحو ـ أثر الخصومات المذهبية في الحديث[1].

ثالثاً: كتاب ظهر الإسلام: وهو يبحث في الحركة العلمية من منتصف القرن الثالث إلى نهاية القرن الرابع، وعقد فصلاً كذلك عن السنّة في هذا العصر، وهو أقصر الفصول الثلاثة، وتضمن الآتي:

ـ أسباب كثرة الحديث في هذا العصر وتأكيده على انتشار وكثرة الوضع ـ ظهور علوم متعلقة بمصطلح الحديث ـ الاكتفاء في الرواية على ما في الكتب ـ أثر الحديث في تقوية الحفظ ـ أثر الدارقطني والحاكم والخطيب في علوم الحديث ـ محامد المحدثين ومثالبهم ـ أثر المثالب في توجيه حركة العلوم ـ التباكي على المعتزلة ـ عناية المحدثين بالسند دون المتن ـ سطوة المحدثين على مخاليفهم[2].

مزايا هذه البحوث:

المطلع على هذه الفصول خصوصاً، والسلسلة عموماً يوقن بسعة اطلاع كاتبها، ودأبه في البحث، وأسلوبه السهل، وفهمه للمصطلحات العلمية، وهو يحاول في أحيان أن يلزم الإنصاف كثناءه على جهود العلماء لمكافحة الوضع، وثناءه على البخاري ومسلم ومنهجهما، ورده على

(١) ضحى الإسلام ص١٠٦ ـ ١٣٧.

(٢) ظهر الإسلام (٢/٤٦ ـ ٤٩).

المستشرقين في إشادتهم بمسند الإمام أحمد لإيراده أحاديث في فضائل بني أميّة قد خلا الصحيحان منها[1]. والحق أن هذه السلسلة بمجملها ينطبق عليها قول القائل: «تنقّه وتوقّه» ففيها مخبآت وعجائب ودرر وفوائد إلا أنها في أرض شوك لا يسلم الماشي فيها من الأذى.

الملحوظات على هذه البحوث:

حظيت هذه السلسلة بجملة وافرة من ردود الفعل ما بين مؤيد وناقد[2].

وقد أراد أن يلبس لباس الموضوعية والتجرد في بداية بحثه بعرض الرأي وما يعارضه دون تدخل كما في عرضه لمسألة تدوين الحديث من فجر الإسلام، إلا أن رأيه الشخصي غلب عليه في العرض فأحياناً يتجاوز ما ينبغي عليه كباحث أن يتوقف عنده ليحرر المسألة ولكنه يتجاوز ليصل إلى ما يريده، وأحياناً يستعمل التعميم ليجعله حكماً على مسألة بعينها، وكان في ضحى الإسلام وظهر الإسلام أصرح منه في فجر الإسلام بما يراه ويعتقده، ومن أبرز الملحوظات على بحوثه ما يلي:

١ ـ الاحتفاء بالمعتزلة، ووصفه لهم بأنهم حملة لواء العقل، وأن ظهور المحدثين عليهم كان سبباً في قلة الابتكار وتقديس عبارات المؤلفين، وإصابة المسلمين بالعقم حتى لا تجد رأياً جديداً أو كتاباً جديداً بمعنى الكلمة[3].

---

(١) ضحى الإسلام (١/١٢٢).

(٢) انظر: حياتي ص١٥٧، مقدمة الطبعة الثانية من فجر الإسلام بآخر الكتاب.

(٣) ظهر الإسلام (٢/٤٨)، ضحى الإسلام (٢/١٤٦)، (٣/٩٤، ٩٥)، وانظر تباكيه عليهم وازدراءه بالمحدثين وعلى رأسهم الإمام أحمد رحمه الله فيه أيضاً: (٣/٨٦ ـ ٢٠٧)، وانظر: يوم الإسلام ص٨٨، ٩٥.

٢ ـ توسيع دعوى دائرة الوضع وشمولها السنّة، وتأثير الخلاف السياسي والكلامي والمذهبي على سير حركة الحديث، وجعل هذا ميزاناً لنقد الحديث، دون نظر لميزان المحدثين[١]، وهو إن لم يصرح بالأخير إلا أن استشهاده في تقرير هذا بأحاديث صحيحة على المنهج الحديثي ووصفها بالموضوعة دليل على عدم اعتبار المنهج الذي اختطه الأئمة الكرام.

٣ ـ تبع هذا أن الأئمة اعتنوا بما أسماه النقد الخارجي ـ نقد السند ـ دون نظر للنقد الداخلي وهو نقد المتن[٢].

٤ ـ أن عدم تدوين السنّة على عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين والاقتصار على المذاكرة كان سبباً من أسباب وضع الحديث[٣].

٥ ـ عرض عدد من المسائل التي حصل فيها اتفاق من الأئمة الكرام بأدلة صريحة صحيحة، بصورة تشكك في هذا الاتفاق، أو بعرض الموضوع بصورة تبرز عدم اقتناعه بهذا الأمر، أو بعرض أمور قد تنقض ما قرره العلماء، مثل: مسألة عدالة الصحابة ﷺ[٤]، أو الاستشهاد بالحديث الشريف في النحو[٥].

٦ ـ تقرير عدم كفاية القواعد التي وضعها العلماء الكرام في الجرح والتعديل للحكم بقبول خبر الراوي لأن هذه القواعد لا تستوفي باطن الراوي، إذ قد تكون على خلاف ما هو ظاهر من حاله[٦].

---

(١) فجر الإسلام ص٢١٠ ـ ٢١٥، ضحى الإسلام (١٢٣/٢).
(٢) فجر الإسلام ص٢١٧، ضحى الإسلام (١٣٠/٢)، ظهر الإسلام (٤٨/٢).
(٣) فجر الإسلام ص٢١٠.
(٤) فجر الإسلام ص٢١٦.
(٥) ضحى الإسلام (١١٣/٢).
(٦) ضحى الإسلام (١١١/٢، ١١٧).

٧ ـ لمز بعض الرواة من الصحابة ومن بعدهم بما يشعر وجوب النظر في مروياتهم مثل أبي هريرة رضي الله عنه[١]، وعبدالله بن المبارك[٢] رحمه الله، أو التلميح إلى أصل دين أجداد بعض الأئمة كابن جريج[٣] والبخاري[٤] رحمهما الله.

٨ ـ أن البخاري رحمه الله هو أول من وسّع دائرة جمع الأحاديث من الأمصار كلها.

وما ذكرت لا يبعد كثيراً مما سبق عرضه في طرائق المستشرقين من طعنهم في السنّة الشريفة، وداخل ما سبق ذكره عدد كبير من التقعيدات والأمور التي تبناها، وقد صاغ هذا بأسلوب بينه هو فقال: «إن الأزهر لا يقبل الآراء العلمية الحرة، فخير طريقة لبث ما تراه مناسباً من أقوال المستشرقين ألا تنسبها إليهم بصراحة، ولكن ادفعها إلى الأزهريين على أنها بحث منك، وألبسها ثوباً رقيقاً لا يزعجهم مسها، كما فعلت أنا في فجر الإسلام، وضحى الإسلام»[٥].

---

(١) فجر الإسلام ص٢١٩.

(٢) فجر الإسلام ص٢١٢.

(٣) فجر الإسلام ص٢٠٥، ضحى الإسلام (١٠٧/٢).

(٤) ضحى الإسلام (١١٠/٢).

(٥) السنة ومكانتها في التشريع ص٢٣٨، ٢٣٦، ويظهر من الأستاذ أحمد أمين في عبارته ترسبات دراسته الأولية في الأزهر، وما لقي من تصرفات وأساليب لم يحبذها وشنع عليها في كتابه حياتي ص٤٥، ٥٠، ٥١، ٥٧، ٥٨، ٨٠، ٨٣، ١٥٣، ٩٤، ٢٠٢، بل وأظهر أن تعليمه فيه كان عقدة له، ولا شك أن الحكم على الشيء بتصرفات بعض المنتسبين إليه منهج خاطئ، كمن يهاجم الإسلام بتصرفات بعض منتسبيه، وقد عقد د. مصطفى السباعي رحمه الله فصلاً جليلاً في كتابه الآنف الذكر للرد على أحمد أمين ص٢٣٦ ـ ٣١٩.

وهذا الذي ذكره وإن كان على الصورة التي ذكرت في كتبه إلا أن هذا ما يراه وأكاد أجزم أنه يعتقده كما يراه القارئ لكتاب يوم الإسلام، وهو من أواخر ما كتب[1].

وهذه البحوث التي ذكرها اختصت بأمرين:

أ ـ أنها من أوائل الدراسات خلال القرن الماضي التي تبنت منهجية علمية محددة صاغها علم من أعلام الكتاب ذو خلفية علمية شرعية.

ب ـ أن هذه السلسلة كانت منطلقاً لمجموعة من الكتب والمقالات التي تناولت تاريخ السنّة متبنية مبدأ الهجوم على السنّة النبوية وحملتها نفياً وتشكيكاً وقدحاً ومن أشهرها:

١ ـ من مصادر التاريخ الإسلامي للدكتور إسماعيل بن أحمد أدهم[2]، والذي خلص فيه إلى إبطال السنّة النبوية، وأن الحديث النبوي منتحل، وقد اعتمد كثيراً في رسالته على القواعد السابقة التي ذكرها أحمد أمين وكان فجر الإسلام مرجعاً أساساً له، بل يذكر عبارته بتمامها لتقرير ما هو بسببه[3].

ولما قام العلماء عليه بالنكير، اضطر أن يدافع عن نفسه في كتاب

(١) انظر تبنيه قول جولد تسهير بأن كثيراً من السنّة مزيف مع أنه قرر مكانتها في أول الكتاب يوم الإسلام ص١٩٦، ١٢، وتبجيله للمعتزلة ص٨٨، ٩٥.

(٢) إسماعيل بن أحمد إسماعيل أدهم: تركي الأصل، شعوبي الوجهة، ملحد العقيدة، عارف بالرياضيات، حاز على الدكتوراه فيها من جامعة موسكو، وكان له اشتغال بالتاريخ، وعين وكيلاً للمعهد الروسي للدراسات الإسلامية، ثم عاد إلى تركيا أستاذاً للرياضيات، ثم عاد إلى مصر وكتب كتباً ورسائل أعلن فيها إلحاده، ثم قضى منتحراً ـ والعياذ بالله ـ سنة ١٣٥٩هـ وله ثلاثون سنة، انظر: الأعلام (١/٣١٠)، الأعلام الشرقية (٢/٨٥٨).

(٣) من مصادر التاريخ الإسلامي ص٨، ٢٠، ٢٣، ٢٤، ٣١، ٣٣.

أرسله إلى مجلة الفتح، وزعم أن ما ذهب إليه من الشك في صحة السنّة لم ينفرد به، بل قد وافقه عليه جماعة من كبار الأدباء والعلماء وذكر منهم أحمد أمين بكتاب أرسله إليه، بل كتب أحمد أمين في الرسالة مقالاً يفيد تألمه مما حصل لصاحبه(١).

٢ ـ كتابا: أضواء على السنّة المحمدية، وشيخ المضيرة أبو هريرة؟! لمحمود أبو رية(٢).

والكتاب الأول: أحدث ضجة كبرى ساعة نشره، حيث تبناه جماعة من الكتاب ودبجوا المقالات في مدحه حتى أرادت بعض الجهات الرسمية طباعته ونشره فتصدى له العلماء بمقالات ومؤلفات.

وأما الكتاب الثاني: فيعده مؤلفه استكمالاً للكتاب الأول(٣).

* * *

(١) انظر: السنّة ومكانتها في التشريع ص٢٣٧.

(٢) محمود أبو رية ـ لم أجد أحد اعتنى بترجمته ـ فخفي ذكره والجزاء من جنس العمل، ولم يحتف به إلا الروافض فأسبغوا عليه لقب الإمامة والتحقيق، كان من كتبة المجلات في عصره الرسالة والفتح وغيرها، وله الكتابان اللذان ذكرتهما وهما يفيضان بذاءة وقبحاً بحق السلف الكرام، وتعاظماً وتشبعاً بما لم يعط وادعاء التحقيق، وفرحاً بالمدح وسوء أدب مع الله تعالى ونبيه الكريم ﷺ، وسباً للصحابة الكرام، توفي بالقاهرة عام ١٩٧٠م وله إحدى وثمانون سنة، انظر: السنّة ومكانتها في التشريع ص٤٦٤ ـ ٤٧١، وكتاب آراء المعاصرين حول الإمامية ص١٠، وقد أحال مؤلفه إلى كتاب له باسم: مع رجال الفكر في القاهرة، ولم أجده إلاّ في الشبكة الإلكترونية، وقد طالعته، فنقل عنه نقولاً عجيبة حيث ادعى أنه أعلم من مالك والشافعي؟! وسباً صريحاً لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وصلة واضحة مع رجال الشيعة كالخوئي وغيره وبينه وبينهم مكاتبات ذكرها هنالك، وقد أحسن د.مصطفى السباعي رحمه الله حيث جلّى وحلل فيه شخصية هذا المسكين ولا مزيد عليه.

(٣) أبو هريرة ص٣٣٠.

المطلب الثالث:
التعريف بكتب متفرقة

على الرغم من السوء والقبح اللذين أحاطا بالكتب التي تبنت مبدأ الهجوم أو التشكيك في السنّة، إلا أن الله جل وعلا حكماً جليلة جلية مصداقاً لقوله ﷻ: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، فكان أن تفتقت أذهان أهل العلم والغيرة على دين الله أن التفتوا إلى مباحث هذا العلم محققين لأصوله، مدققين لفروعه، مجردين لمسائله، موضحين مشكله، مهتمين بمفاصل تاريخه، فقامت نهضة علمية كبرى، وفتح باب عظيم من أبواب العلم فتوالت التصانيف مستعرضة تاريخ السنّة بعمومه ليستشهد به في الرد على المفتريات، أو بخصوص جزئية معينة يستحضر بها التاريخ ليبين أسباب ظهورها ودواعيها، وتنوعت التآليف فصارت مجالاً رحباً للكتابة والتصانيف جامعة بين المنهجين السابقين، وسأعرض هٰهنا جملاً؛ منها:

١ ـ الحديث والمحدثون أو عناية الأمة الإسلامية بالسنّة النبوية للدكتور محمد محمد أبو زهو ألفه كما قال في: «تاريخ الحديث والمحدثين، يكشف عن وجه الحقيقة التي طالما شوّه جمالها أصحاب الأهواء، ويوضح الحق من الضلال ويميز بين الخطأ عن الصواب»[(١)].

وهذا الكتاب يعتبر أصلاً من أصول علم تاريخ السنّة وزانه بسعة في البحث والاطلاع، وأدب جم وتعفف في العبارة وعرض الأسلوب، قاصداً الرد على الشبه المثارة دون تسمية أحد من الطاعنين وإن كانوا معروفين بأشخاصهم. وقد حوى ضمن أبوابه مباحث جليلة يصعب استيعابها في هذه الإلمامة اليسيرة رد منها على كثير من الشبه بثقة العالم، وسعة اطلاعه،

(١) الحديث والمحدثون ص٦ وسبقت الإشارة إلى تقسيمه للأطوار التي مر بها علم الحديث، وقد قدم قبله بتعريف السنّة ومكانتها من القرآن والدين، وختمها في ذكر أنواع من علوم الحديث ناطقة بجهود الأئمة في خدمة السنّة.

وهدوء الباحث المنصف منها استقلال السنّة بالتشريع، وعدالة الصحابة ومنهجهم في الرواية، والرواية بالمعنى... إلخ.

وهذا الكتاب جمع بين حقيقة علم تاريخ السنّة وغايته في استنباط الفوائد وتحليل الأحداث والرد على الشبهات.

٢ ـ السنة قبل التدوين للدكتور محمد عجاج الخطيب.

وهو كتاب جليل يتناول بالبحث السنّة قبل تدوينها الرسمي على عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، رداً على دعاوى المناوئين الذين زعموا أن السنّة أهملت بعد رسول الله ﷺ أكثر من قرنين إلى أن جمعها بعض المصنفين في القرن الثالث الهجري، ولذا تسرب إليها الوضع.

وقد مهد الكتاب بتعريف السنّة، ثم موضوعها، ومكانتها من القرآن الكريم، ثم عقد بعد ذلك خمسة أبواب:

الباب الأول: في السنّة من العهد النبوي متناولاً المنهج الذي اتبعه النبي ﷺ في تعليم السنّة وعوامل انتشارها في عهده.

الباب الثاني: في السنّة على عهد الصحابة والتابعين، مبيناً منهج الصحابة في تعليم الحديث وطريقتهم في الرواية، والنشاط العلمي في عهدهم، وعوامل انتشار السنّة في ذلك الوقت.

الباب الثالث: في الوضع في الحديث وأسبابه، وجهود الصحابة والتابعين في مقاومة الوضع، ومناقشة بعض آراء أعداء السنّة في السنّة ونقدها، ثم تعرض للكتب المعرفة بالرجال وأصنافها.

الباب الرابع: في تدوين السنّة وتاريخها في عصر النبي ﷺ وأصحابه والآراء في التدوين ومناقشتها.

الباب الخامس: أعلام رواة الحديث بين الصحابة والتابعين ترجم لجماعة منهم وخص دفاعه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والزهري رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهذا الكتاب مثل سابقه إلا أنه اقتصر على فترة محددة بما قبل التدوين وهو أصل من أصول هذا العلم.

ويقرب من موضوع هذا الكتاب كتاب دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه للدكتور محمد الأعظمي، إلا أنه أثبت في هذا الكتاب أن الحديث قد دون منه شيء كثير في القرنين الأولين وتتبع بدراسة تاريخية استقرائية هذا الأمر وأقام الدلائل على ذلك، وقد قدم الكتاب بمقدمة حافلة في السنّة ومكانتها وتاريخ الطعن فيها.

٣ ـ الردود على أبي رية وأضرابه ومن أشهرها ثلاثة:

أ ـ السنّة ومكانتها في التشريع للدكتور مصطفى السباعي وهو كتاب من أصول هذا العلم قسمه إلى ثلاثة أبواب وخاتمة.

الباب الأول: السنّة وتعريفها ومنهج الصحابة في الرواية، وعن الوضع في الحديث وجهود العلماء في مكافحة الوضع، وثمرة هذه الجهود بالعلوم المتفرعة عن السنّة مثل مصطلح الحديث والجرح والتعديل.

الباب الثاني: في الشبه الواردة على السنّة في مختلف العصور، استعرض فيها شبه الشيعة والخوارج، والمعتزلة والمتكلمين، ومنكري حجيتها قديماً وحديثاً.

الباب الثالث: في مرتبة السنّة من التشريع.

الخاتمة: تراجم الأئمة الأربعة، وأصحاب الكتب الستة.

ب ـ الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنّة من الزلل والتضليل والمجازفة للشيخ عبدالرحمٰن بن يحيى المعلمي.

وهو رد تفصيلي على كتاب أضواء على السنّة المحمدية لمحمود أبي رية وما ورد فيه من دعاوى باطلة، والشيخ رحمه الله محقق مدقق وهذا الكتاب

من حسناته، وقد حوى كثيراً من القواعد والأحكام السديدة مع الأدب الرفيع في المناقشة.

ج ـ دفاع عن السنّة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين، للدكتور محمد محمد أبو شهبة.

وهو كتاب في الرد على أبي رية هذا وقد قسمه إلى قسمين:

القسم الأول: في مكانة السنّة وحجيتها، وعناية الصحابة بتبليغ الحديث، ومسألة كتابة الحديث، وتدوينه، ثم جهود المحدثين لحفظ السنّة وقواعدهم التي اختطوها.

القسم الثاني: الرد التفصيلي على أبي رية.

٤ ـ كتب في موضوعات تاريخية متعلقة بالسنّة سأعرض عناوينها لتدل إن شاء الله على مضمونها:

أ ـ صحائف الصحابة وتدوين السنّة النبوية، لأحمد بن عبدالرحمن الصويان.

ب ـ توثيق السنّة في القرن الثاني الهجري (أسسه ومناهجه)، أ.د. رفعت فوزي عبد المطلب.

ج ـ الحديث والمحدثون في اليمن في عصر الصحابة، د. عبدالله الحميري.

د ـ مدرسة الحديث في مصر منذ سقوط بغداد إلى نهاية القرن التاسع عشر، د. محمد رشاد خليفة.

هـ ـ علم الحديث في مكة المكرمة خلال العصر المملوكي، د. صالح يوسف معتوق.

و ـ مدرسة الحديث في بلاد الشام خلال القرن الثامن الهجري، د. محمد ابن عزوز.

ز ـ السنّة النبوية خلال القرن الرابع عشر الهجري، د.أحمد محمد محمد سالم.

ح ـ علم الرجال نشأته وتطوره، د.محمد مطر الزهراني.

ط ـ صفحات مشرقة من عناية المرأة بصحيح البخاري، د.محمد بن عزوز.

ي ـ جهود المعاصرين في خدمة السنّة النبوية، محمد بن عبدالله أبو صعيلك وغير ذلك كثير.

ومما يذكّر به هٰهنا أن الهجمات على السنّة المطهرة قد تكاثرت في هذا العصر واستغلت وسائل جديدة لنشر هذا الأمر كالشبكة الإلكترونية والقنوات الفضائية، ويقف وراءها أعداء السنّة من الروافض والعقلانيين والقرآنيين واليهود والنصارى وغيرهم، وجدت كتب جديدة تبدأ وتعيد ما عرضه أسلافهم في هذا القرن، ولعله يكون مجال بحث جديد ليستفاد من جهود السابقين في الرد على هؤلاء، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

خاتمة

وإذا آن لي أن ألقي عصا التسيار بعد التجوال في ثنايا هذا البحث، فالحمد لله أولاً وآخراً على توفيقه بإعانتي على إتمامه، وقد تبيّن للقارئ الكريم عدداً من النتائج المهمة التي أوجزها بما يلي:

١ ـ التأصيل لقواعد هذا العلم، والتتبع التاريخي لظهوره، ودواعي ذلك.

٢ ـ أثر الحركة الاستشراقية وامتدادها في العالم الإسلامي عن طريق من اندرج تحت لواءها من المنتسبين إلى الإسلام في حصول الحاجة الماسة إلى هذا العلم، وظهوره.

٣ ـ أن الكتب التي ألّفت في تاريخ السنّة غلب عليها الجانب الدفاعي ضد هجوم أعداء السنّة عليها.

٤ ـ أن هذا العلم لا يزال تتفرع منه فروع كثيرة تتناول تاريخ كل علم من علوم السنّة، وتاريخ أمور متعلقة بهذه العلوم ما يتيح المجال الرحب أمام الباحثين لإثراءه واستكمال نواقصه، ليتشكل رافد جديد من روافد علوم السنّة المطهرة.

هذا؛ والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ملخص البحث

علم تاريخ السنّة من العلوم التي جدّت في عصرنا الحاضر ـ وإن كانت متعلقاته مبثوثة في كتب الأولين متفرّقة ـ تعريفاً بالسنّة وتاريخها والأطوار التي مرّت بها، والشبهات التي أُثيرت حولها، فأصبح علماً مستقلاً بذاته، ألّفت فيه الكتب، وكان مادة دراسية تُدرّس في الجامعات والكليات الشرعية، وعلى كثرة التآليف فيه، إلا أنه لم يكتب فيه مدخلٌ يبين تعريفه وأصوله وقواعده وفائدته وأهميته ومناهج الكتابة فيه، وأسباب ظهوره، وهذا البحث يهدف إلى الكتابة في هذه الأمور فيما يصلح أنه يكون به مدخلاً إلى هذا العلم ونوعاً جديداً من أنواع علوم الحديث يمكن أن يُضاف إلى تلك العلوم.